**النظرية الإيطالية الحديثة " البيولوجية الاجتماعية"**

يتزعم هذه المدرسة العالم" أنر يكو فيري "E. Ferri "1856-1929" أحد تلامذة "لومبروزو" Lombrose وأستاذ القانون الجنائي، الذي وضع أُسس علم الاجتماع الجنائي، وهو يمثل الاتجاه البيولوجي الاجتماعي في المدرسة الإيطالية القديمة بالرغم من تأييده للعالم" لومبروزو"، وهناك من الباحثين من يرى بأن" فيري " هو المؤسس الحقيقي لعلم الجريمة الحديث. وأياً كان الأمر فإن لـ" أنر يكو فيري" E. Ferri الفضل في تأسيس ما يعرف حالياً بـ" علم الاجتماع الجنائي" Criminal Sociology.

وقد وضع" فيري " أُسساً للجريمة والسلوك الإجرامي بمعادلة تشبه المعادلة الكيميائية أطلق عليها قانون التشبع الإجرامي أو الكثافة السكانية، وأرجعها إلى عوامل ثلاثة هي:

1- عوامل طبيعية: مثل الموقع لجغرافي والمناخ والأحول الجوية.. الخ.

2- عوامل فردية: مثل السن والجنس والخصائص العضوية والعوامل الموروثة.

3- عوامل اجتماعية: مثل كثافة السكان والعادات والتقاليد والتنظيم السياسي والظروف الاقتصادية وغيرها.

وقد التزم " فيري " E. Ferri في بحوثه ودراساته بالمنهج التجريبي الذي سلكه"لومبروزو" Lombros واختار في عام "1881" عينّة تتكون من "300" مجنون و"700" مجرم من السجناء و"711" جندياً كمجموعة ضابطة، وقد راعى في اختيارهم أن يكونوا من الأماكن ذاتها التي ينتمي إليها المجرمون، ومن مستواهم الاجتماعي نفسه، وقسم بحثه إلى قسمين الأول: يشتمل على النواحي البيولوجية، ويضم الثاني: الجوانب النفسية، ثم قام بتصنيف المجرمين إلى الطوائف التالية:

1- المجرم بالولادة أو بالغريزة Born Criminal: وهو المجرم الذي لا يستطيع مقاومة غريزته وما ينتج عن ذلك من دوافع إجرامية ورثها منذ الولادة.

2- المجرم المجنونInsane Criminal : وهو المجرم الذي يرتكب الأفعال الإجرامية المخالفة لقواعد المجتمع وقوانينه نتيجة لتخلفه أو لمرضه العقلي.

3- المجرم بالصدفة Criminal Occasional : وهو المجرم الذي يرتكب فعله الإجرامي نتيجة لظروف عائلية وبيئية- اجتماعية وثقافية- أكثر من كونه ناتجاً عن عوامل شخصية أو نفسية متوارثة.

4- المجرم العاطفي Passionate Criminal: وهو المجرم الذي يرتكب جرائمه نتيجة لعدم تمكنه من السيطرة على نوازعه وانفعالاته.

5- المجرم المعتاد Habitual Criminal: وهو المجرم الذي تكونت لديه العادة على ارتكاب الأفعال المخالفة للقانون والعادات والتقاليد الاجتماعية.وتبين له أن هناك 10% من السجناء و37% من الجنود كانوا بدون التشويه الخلقي الذي ذكره لومبروزو وتؤكد مثل هذه النتيجة أن التشوهات وإن وجدت بكثرة في المجرمين إلاّ أن حالات الاستثناء كثيرة ومتعددة. ولقد حاول أن يعلل ذلك لومبروزو بأننا إذا وجدنا هذه التشوهات في الأمناء من الرجال والسيدات، فإننا نكون أمام طبائع إجرامية لم ترتكب بعد الفعل الظاهري لأن الظروف التي عاشوا في كنفها أدت إلى حمايتهم من إغراء الجريمة. ولكن هذا يعني أن لومبروزو يعترف صراحة أن البيئة تلعب دوراً هاماً في حدوث الجريمة وأن هذا في نفس الوقت يلقي ظلالاً من الشك على نظريته.

وقد توصل فيري من بحوثه إلى أن المسؤولية الجنائية لا تقوم على أساس خلقي وإنما على أساس من التضامن الاجتماعي الذي يفرض على المجتمع مسؤولية الدفاع عن نفسه من خلال تدابير وقائية أكثر منها عقابية.

وأخيراً يمكن إجمال أفكار" فيري " E. Ferri بما يأتي:

1. الجريمة هي نتاج عوامل متعددة " طبيعية وفردية واجتماعية.

2. إصلاح المجرم ليس كافياً، بل يجب بذل الجهود لإصلاح وسطه الاجتماعي.

3. التأكيد على أهمية السياسة الجنائية للوقاية من الجريمة.

من جهة أخرى اهتم الفقيه الإيطالي "رافائيل جاروفا لو"Garofalo R."1852 - 1934" بالجوانب الفقهية القانونية، لذا يمكن عدّه ممثل الجناح القانوني في المدرسة الإيطالية، وبالرغم من تأييده لأستاذه "لومبروزو " Lombros فيما يتعلق بالمجرم البدائي وصفاته الانحطاطية، إلا أنه لا يقّيم هذه الانحطاطية على أساس عضوي فقط وإنما أيضاً يعدّها انحطاطية عقلية نفسية.لذا نادى بفرضيته القائلة: إن المجرم ليس ذلك الشخص الذي يحمل خلقة شاذة فقط ولكنه ذلك الشخص الذي يحمل نفساً شاذة ." فالمجرم له نظام نفسي خاص، لذا فإنه أكد على الشذوذ النفسي للفرد واهتم بعلاقة هذا الشذوذ بالسلوك الإجرامي. ورأى أيضاً أن الفرد ليس حراً في تصرفه بل هو مجبر على إتيان فعله نتيجة استعداده وظروفه المختلفة، وعلى ذلك يجب أن يعامل على ضوء مايظهر من دراسة طبيعته وشخصيته وما يكتنفها من ظروف اجتماعية.

وأكد"جاروفا لو" على عدم جدوى وصف الجريمة وتصنيفها، وبهذا رفض التعريف القانوني للجريمة على أنها "رد فعل مخالف للقانون الجنائي يتطلب عقوبة أو إجراءً احترازياً، وذلك- حسب رأيه- تعريف ينقصه كثير من التحليل العلمي. فهو يرى أنّ الجريمة سلوك منافٍ ومسيء لعنصرين أساسيين هما: وجدان المجتمع Pity، والأمانة Probity.

وهذان العنصران يشكلان-حسب رأيه- أُسس الحياة الاجتماعية بين الأفراد والجماعات، ومن واجب المجتمع هنا أن يدافع عنهما ويقف ضد كل من يسيء إليهما. والمجرمون هم الذين ينقصهم هذان العنصران.

ويتفق"جاروفا لو " Garofaloمع "فيري" في العوامل الأساسية التي تشكل الدوافع التي تكمن خلف السلوك الإجرامي وهي العادة والعرف والطقس واستعمال المواد الكحولية وغيرها من العناصر ذات الطبيعة الاجتماعية.

من جهة أخرى يصنف"جاروفا لو" Garofalo المجرمين إلى الأنواع التالية:

1. المجرم القاتل.

2. المجرم العنيف.

3. المجرم السارق.

4. مجرم الجنس.

أمّا رأي " جاروفا لو " Garofaloفي العقاب فكان رأياً قاسياً في بعض الأحيان فهو يرى بأنه يجب أن يكون العقاب متناسباً مع صنف المجرمين، ويدعو لإبادة صنف القتلة لإستحالة إصلاحهم، ويرى ضرورة حجز مجرمي العنف عن المجتمع لمدد غير معلومة، أمّا صنف السرّاق فيجب عزلهم في أماكن بعيدة وإجبارهم على العمل لسد نفقاتهم المعاشية خلال فترة عزلهم. في حين يجب نفي مجرمي الجنس إلى المستعمرات البعيدة. وهذه الآراء العقابية قد أثارت الكثير من الجدل والنقاش بين الفلاسفة وعلماء العقاب والجريمة لأنها تعد آراء قاسية تجاه الشخصية المجرمة وتكلف المجتمع كثيراً من الأموال والجهود.

النظرية الإيطالية في الميزان

لاشك أن النظرية الإيطالية بشقيها القديم والحديث كان لها الدور الأساس في تفسير الظاهرة الإجرامية تفسيراً علمياً قائماً على الحقائق الواقعية بعيداً عن الأفكار الميتافيزيقية والأخلاقية والدينية، بسبب اعتمادها المنهج التجريبي والملاحظة في البحث والدراسة. ومع ذلك فقد تعرضت هذه النظرية لجملة من الانتقادات أهمها:

1 - بطلان الأساس التجريبي الذي بني عليه" لومبروزو " نظريته الأولى، حيث اقتصرت دراسته على فحص جثث وأجسام المجرمين الأحياء منهم والأموات، ولم يستخدم مجموعة ضابطة من غير المجرمين، كما أن عينة البحث التي استخدمها لم تكن ممثلة تمثيلاً صحيحاً للظاهرة محل الدراسة لا من حيث عدد المجرمين ولا من حيث نوع الجرائم، الأمر الذي أفقدها المنهجية العلمية.

2- القول بأن الصفات الوحشية والبدائية التي أكد عليها" لومبروزو" تعوزه الدقة، وفيه نوع من المغالطة، لأن المجتمع البدائي لم يكن جميع أفراده من المجرمين، كما أنه لا يمكن التحقق من أن الإنسان الأول كان يعيش على سفك دماء أخيه، فهذه أفكار غيبية بعيدة عن النهج العلمي الاختباري، من هنا خرجت أساسات هذه النظرية عن المنطق السليم.وهنا أكد بعض العلماء ومنهم" نيكولاس بندا " Nichlas Pende أن الدراسات المتعلقة بالسلالات البشرية تؤكد أن الإنسان البدائي كان له صفات نفسية راقية متميزة عن الحيوان، وإن كانت لم تصل إلى مرتبة رقي نفسية الإنسان الحديث.

3- أغفل" لومبروزو " دور العوامل الأخرى لاسيما الاجتماعية أو البيئية في شخصية المجرم وفي الدفع به إلى هاوية الجريمة، وهذا دعا تلميذه" فيري " إلى الاهتمام بدراسة هذا الجانب من العوامل.

4- استخفاف النظرية بالحريات والضمانات الفردية، مع الإخلال بمبدأ الشرعية عندما نادت باتخاذ تدابير استئصاليه قاسية ضد فئات المجرمين لاسيما المجانين والمجرمين بالعادة وغيرهم من المجرمين على نحو ماذكر"جاروفا لو ".

5- قول النظرية بحتمية الجريمة وإنكارها المطلق لحرية الاختيار.

6- إهمالها لاعتبارات العدالة وما استتبعه ذلك من إنكار للمسؤولية الجنائية.

7- قولها بوجود نوع ثابت من الجريمة غير مختلف عليه لا في الزمان ولا في المكان، وهي الجريمة الطبيعية القائمة على الجوانب الأخلاقية والقيم الاجتماعية مشككة بالمفهوم القانوني للجريمة على نحو ما ذكره"جاروفا لو " هو قول لا يخلو من التناقض أيضاً.

إن الانتقادات السابقة لا تقلل من القيمة العلمية للأفكار التي جاءت بها النظرية الإيطالية لاسيما فيما يتعلق بنظرتها الإنسانية إلى المجرم واعتمادها على المنهج العلمي القائم على التجربة والملاحظة وحثها على التدابير الإصلاحية والاحترازية، وقد تركت هذه الأفكار الوضعية بصماتها في التشريعات العقابية، وانتهت إلى تفريد العقوبة في القانون وفي المحاكمة وفي التنفيذ.